أثر العشرية السوداء في رواية (فوضى الحواس) لأحلام مستغانمي

أ . غنية لوصيف*

لكل جنس أو نوع أدبي مبدعيه وأعلامه الذين يحملون عاليا راية الأدب والإبداع ، ومن غير الممكن القول أن هناك بعض الأجناس الأدبية قادرة على الزوال والانتهاء ، بل ما يحدث هو أن هناك بعض الأنواع في فترة معينة يذيع صيتها وتبرز بشكل لافت للانتباه ، وتأخذ الصدارة ، وأخرى يعتم عليها الضوء أو تنعزل وتحيد لبعض الوقت ، كما حدث وأن كانت القصة القصيرة في مقدمة الأجناس الأدبية لا مزاحم لها باعتبارها الأكثر تعبيرا عن واقع المجتمعات ، ثم جاءت الرواية لتأخذ الريادة سواء على المستوى العالمي أو العربي مع أهم ممثليها ، إذ تعرف الرواية العربية اليوم كجنس أدبي متميز تطورا وازدهارا لم يسبق وأن عرفته قبلا ، حتى أن هناك من قال أن الرواية باتت ديوان العرب وأضحت غوصا في عمق المجتمع وتطلعا إلى الخروج من التخلف ، فهي ترصد مختلف التحولات والتمزقات والخيبات التي تعرفها المجتمعات العربية اليوم .

و الرواية الجزائرية جزء لا يتجزأ من الأدب العربي عامة فقد استطاعت أن تصل إلى العالم بفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية (مولود معمري ، مولود فرعون ، محمد ديب...) وبفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة العربية (الطاهر وطار ، عبد الحميد بن هدوقة ، مرزاق بقطاش ، أحلام مستغانمي...) ، ولا يخفى على القارئ وهو يطالع هذه الروايات أن يلحظ بعض الخصائص المشتركة في المضمون ، والتي يستمدها كل كاتب من الواقع المعيش أو من الحدث الأكثر تأثيرا على المجتمع في تلك الفترة : حدث اجتماعي ، ثقافي ، سياسي... « وليس من المعقول أن يثبت الكاتب كل ما يحدث في الحياة ، بل يختار من الأحداث ويقتطع منها ما ينسجم مع تفصيلات القص ، والمرامي المتوخاة في

---

* معهد الأدب العربي واللغات ، المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

سيرورتها وصيرورتها » (1) ،وهذا ما فعله معظم القصصيين والروائيين .

وقد مرت الجزائر بتجربة حربية خاصة ذات نوعين ، تضعها على درجة عالية من الأهمية لا تقل عن التجربة الفلسطينية مثلا أو العراقية ، أولى هذه التجارب : الثورة التحريرية ، وثانيها : فترة العشرية السوداء .

1/ الثورة التحريرية :

إن القارئ للأدب الجزائري يلحظ فيه خاصية الثورة بوصفها هاجسا أساسيا يحرك عملية الكتابة أو هي تتحرك فيه ، فمنذ بدايات الاحتلال الفرنسي والمقاومة ترسخ بجذورها في طين الجزائر عبر هذا الأدب ، « والواقع أن هذه الظاهرة لا تدعو إلى الغرابة ما دامت الجزائر حديثة عهد بحرب التحرير ، ومادام طابع عصرنا كله طابعا تحريريا » (2) ،ومن هذه الروايات التي مثلت هذه الفترة : « البزاة» لمرزاق بقطاش التي صور فيها المعاناة التي عاشها المواطن الجزائري من طرف العدو : الجوع ، القمع ، الظلم ، الاستبداد ، وأيضا رواية « اللاز » للطاهر وطار التي سعى من ورائها إلى البحث عن الجانب الغائب في الحركة الوطنية ، « ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة ، « العشق والموت في الزمن الحراشي» للطاهر وطار ، هاتان الروايتان اللتان تنحوان أكثر من غيرهما نحو إبراز الصراع الطبقي كما كان حاضرا في تلك الفترة ، فيشعر القارئ دوما بحضور ما في الكتابة ، إضافة إلى روايات أخرى : « زمن النمرود» للحبيب السايح ، « السعير » لمحمد ساري ، « ما تبقى من سيرة الأخضر حمروش» لواسيني الأعرج...

العشرية السوداء :

لقد مرت الجزائر من أواخر الثمانينات إلى منتصف التسعينيات بفترة كان لها وقع كبير على النفوس ، يعادل وقع الثورة إن لم نقل يفوقها نظرا لانشغال الناس بها ، كل هذا لم يمنع الكتاب من تسجيل هذه الأحداث والتطرق إليها في مختلف كتاباتهم القصصية والروائية ، ومن الروايات التي جسدت هذه الفترة (فترة العشرية السوداء) : « الشمعة والدهاليز » للطاهر وطار ، « سيدة المقام» لواسيني الأعرج ، « تيميمون» لرشيد بوجدرة ، وأيضا رواية « فوضى الحواس» التي تمثل الجزء الثاني من ثلاثية أحلام مستغانمي ، هذه الأخيرة التي حققت إنجازا إبداعيا منذ

أول عمل روائي أصدرته وهو « ذاكرة الجسد » الذي فاجأ الجميع بمستواه الفني الكبير ، وهي رواية عن مقاومة الجزائر للهيمنة الفرنسية وعن المشاكل التي عصفت بها أمتنا بعد نيلها للاستقلال ، قال نزار قباني عن هذه الرواية : « دوختني وأنا نادرا ما أدوخ أمام رواية من الروايات » (3) .

و « فوضى الحواس » مثل سابقتها هي من الروايات التي استطاعت أن تعبر بصدق وبكل جرأة عن المجتمع الجزائري وحياة أفراده ، وترصد مختلف تحولاته وتمزقاته بكل ما عاشته الجزائر من أفراح وأحزان إزاء العشرية السوداء ، فهي رواية تختصر الحزن والألم من جهة ، والحب والأمل من جهة أخرى ، وتتمثل محاورها الأساسية في الحب والموت والوطن التي تمثل أهم أساسيات الفن الروائي عند أحلام مستغانمي ، إذ تقودنا هذه الأخيرة عبر عملها هذا إلى بعض الخفايا التي تمكن خلف كواليس السياسة الجزائرية ، وتضعنا أمام موتيفات غير مكتملة ولكنها مؤثرة في أحداث المجازر اليومية التي ينظمها المتطرفون .

صدرت « فوضى الحواس » عن دار الآداب ببيروت عام 1998 أي أنها ظهرت خلال الفترة الساخنة من الجحيم الإرهابي بالجزائر بالقياس إلى ما مضى وما سيأتي ، ثم طبعت مرات عديدة فيما بعد .

الحب والموت والوطن في « فوضى الحواس » :

يمكن أن ننسب هذه الرواية إلى الخطاب الذي يمزج الحب بالقمع والحياة بالموت ، حيث تكشف في مواقع كثيرة عن رغبة في التجرد من كل الهوامش الجانبية في الحب والعشق واستغلالها لهدف آخر ، وهو وصف السنوات الصعبة التي مرت بها الجزائر ، في قصة حب عجيبة بطلتها شخصية مثقفة وواعية ، روائية تحب الكتابة ، فأحلام هي مؤلفة الرواية وهي أيضا بطلة النص « حياة » ، وهي المدينة والوطن ، هي الذاكرة والحياة ، هي الكاتبة والمكتوبة ، وهي العاشقة والمعشوقة ، هي الحلم والألم ، لأنّ الحلم والألم أحلام تساوي حلما وألما (4) .

ونجد أنفسنا في بداية الرواية إزاء قصة حب قصيرة ، كتبتها البطلة أسمتها « صاحب المعطف » ، قدمت فيها إرهاصات كثيرة لما سيأتي في القصة الرئيسية ، فكانت هذه القصة كتمهيد للأحداث التي سيأتي تفصيلها فيما بعد ، أو كصورة مصغرة عن مجمل الرواية ككل ، حيث نجد

البطلة قد أعجبت ببطل هذه القصة «ربما تمنيت سرا، لو كان هذا الرجل لي. إنه على قياس صمتي ولغتي. وهو مطابق لمزاج حزني وشهوتي» (5)، فيختلط لديها وهم الكتابة بالحياة الحقيقية، ويمتزج الحلم بالواقع، فتبدأ برحلة البحث عن هذا الرجل، وهي بذلك تشبه أسطورة «بيجماليون» الذي نحت تمثالا لامرأة سماها «جالاتيا» «وراح يصلي للآلهة أن تهب الحياة لتمثاله ذاك، فاستجابت الآلهة وتزوج بجماليون من جالاتيا» (6)، ومن شدة فضولها واندفاعها تذهب «حياة» إلى قاعة السينما «أولمبيك» إيمانا منها بلقاء ذلك الرجل، وهناك تلتقي بـ «عبد الحق» الذي شعرت بميل نحوه، لكنها لم تتبين ملامحه جيدا وسط العتمة، ولم يبق منه سوى عطره والكلمتين القاطعتين اللتين تلفظ بهما (طبعا ـ حتما)، ولكنها في لحظة من فوضى الحواس أخطأت وجهتها وأرشدها قلبها إلى شخص آخر: «إنه عبد الحق إذن.. الرجل الذي كان يجلس بقميص وبنطلون أبيض على هذه الطاولة... ثم جاء صديقه في زي أسود، فاجأني عطره، أعادني إلى ذلك العطر الذي.. فرحت أختبره بكلمات اعتذار وإذ به يجيبني بتلك الكلمات الصغيرة التي» (7)، وهكذا وقع اختيارها على اللون الزائف فاختارت النظير بدل الأصل ووقعت في حب صديقه «خالد».

عانت «حياة» نوعا من الاضطرابات والصراعات الداخلية والاختيارات الصعبة بين أخوها الذي ينتمي إلى الجماعات الأصولية وزوجها العسكري، وحبيبها الصحافي «أصبحت مسكونة دائما بهاجس الصدمة، مهوسة بهذا الموت المباغت الذي أراه يحوم حول كل من يحيطون بي، بين أخي الأصولي الذي تطارده السلطة وزوجي العسكري الذي يتربص به الأصوليون وذلك الصحافي الذي أحب والذي يصفي الاثنان حساباتهما وخلافاتهما بدمه، كيف يمكنني أن أعيش خارج دائرة الذعر» (8)، وقد مثل «ناصر» شريحة من الشباب الجزائري والعربي ككل الطالع في التسعينيات ـ وهو زمن كتابة الرواية ـ وخواطره في الواقع هي خواطر الشباب العربي الذي لم يشف بعد من حرب الخليج الثانية، وهو كما تقول الكاتبة: «عند بدء الاجتياح العراقي كان يعيش مشتتا...مضطربا، ينام وهو من أنصار صدام حسين، ويستيقظ وهو يدافع عن الكويت» (9)، أما داخل الرواية فيطالب «ناصر» أخته بأن تطلق زوجها العسكري لأنه لا يناسبها، كما يطالبها أيضا بأن تصمت وتكف

عن الكتابة لأن زمننا هذا لا يصلح لمثل هذه الأعمال ، فـ « ناصر » باختصار « بين خيباته الوطنية ، وإفلاس أحلامه القومية ، غسل يديه من العروبة ، أو على الأصح توضأ ليجد قضيته في الأصولية » (10) .

أما زوج « حياة » العميد « سي مصطفى » فهو رجل سياسة ونفوذ ورمز للسلطة الراهنة في الجزائر ، من المناضلين الذين كتبوا بدمائهم حرية الجزائر وماضيها المشرق ، ولكنه وللأسف أغوته الأموال والكراسي وباع مبادئه ، فراح يكتب بفساده وطمعه حاضر الجزائر المغاير لماضيها ، « إنه يفكر بمنطق العسكر الذين عندما يصل أحدهم إلى السلطة يصر على شغل كل المناصب الرئيسية في الدولة ، وكل الحقائب الوزارية الهامة ، معتقدا أنّ لا أحد غيره جدير بأن يشغلها ، بل وأن وجود شخص غيره فيها هو احتمال دائم للإحاطة به » (11) .

بيد أن « خالد » في هذه الرواية عبارة عن كائن حبري أنهضته الكاتبة في روايتها السابقة « ذاكرة الجسد » لتعيش معه في « فوضى الحواس » مغامرة عشقية خيالية رامزة . هو نموذج للصحافي الجزائري ورجل الإعلام المحب لمهنته والمخلص لبلده ، والذي يطلع الرأي العام على الأحداث والمستجدات بكل تفاصيلها ، عارض السلطة الغاشمة وعاداها دائما من خلال السلاح الذي يتقنه وهو التصوير ، هذا ما أدى إلى شل ذراعه اليسرى في إحدى التظاهرات التي أقامتها بعض الحشود في الشوارع : « حدث ذلك أثناء أحداث أكتوبر 1988 . كنت وقتها أعمل مصورا صحافيا . فذهبت لألتقط صورا لتلك التظاهرات التي اجتاحت فيها الحشود الشوارع دون سابق قرار (. . .) أذكر أنني حاولت أن التقط صورة لعسكري ، وهو يقف على مبنى مقر الحزب ، موجها رشاشة نحو الشارع ، وخلفه علم الجزائر . عندما انطلق الرصاص من ذلك المبنى واخترق ذراعي » (12) ، وقد هدده المتطرفون ببتر ذراعه اليمنى إن تابع نقدهم من خلال عمله هذا .

فهذه الرواية إذن ما هي سوى صدى للخطاب السياسي السائد في تلك الفترة ، وللصراعات القائمة بين القيادة العسكرية الأمنية في البلاد من جهة ، وبين الجماعات الأصولية والمتطرفة التي كانت ترتدي ثوبا دينيا لأهداف سياسية محضة من جهة أخرى ، هذه الاختلافات أدت إلى ارتكاب جرائم كبيرة وفظيعة في حق الشعب الجزائري بلغت أقصى ما بلغته

الهمجية والوحشية .

وفي وسط كل هذه التداعيات والتناقضات من حب وعشق وألم وخيبة ، نجد أخبار الموت تصل الواحدة تلوى الأخرى مسموعة ومكتوبة « و في موت الأبطال في الرواية دلالات كثيرة ، حتى أن الموت ذاته قد يتخذ أشكالا ويصبح إشكالا . . . فثمة موت اجتماعي وعاطفي ، وموت سياسي ووطني ، وموت فكري وفلسفي . وقبل هذا وذاك ثمة موت حقيقي ، أو قتل للكائن الخيالي في العمل الفني يؤتى به ليستغل استغلالا حسنا في القصة » [13]، وتبدأ الكاتبة بموت « عمي أحمد » سائق سيارة الضابط العسكري (زوج حياة) وأسرته ـ قتل خطآ على يد المتطرفين لأنه كان يجلس جوار « حياة » ، فحوله هذا الجلوس من سائق إلى ضابط ، تقول البطلة : « كل الأسئلة أصبحت تختصر عندي في سؤال واحد : موت هذا الرجل جريمة قدر أم جريمة أدب ؟ . وبالتالي إلى أية درجة أنا مسؤولة عن موته » [14]، وكان مقتله في المدينة التي حارب فيها المستعمر الفرنسي منذ بداية الثورة ، وهي قسنطينة (التي دارت فيها معظم أحداث الرواية) ، بل وعلى جسورها بالذات التي تعتبر من أجمل الأمكنة في الجزائر ، فلم تشأ الحياة أن يموت « عمي أحمد » بغدر الفرنسيين بل بخيانة المتطرفين ، الذين جاؤوا ليشوهوا كل جميل في بلادنا غير عابئين بتاريخنا المجيد .

ويتواصل سيل الكتابة صفحات أخرى ، تستحضر الكاتبة الآمال والآلام ، الأفراح والأحزان ، إلى أن تصل في الصفحة السادسة والأربعين بعد الثلاثمائة إلى الحدث الأكثر وجعا وحزنا للبطلة ، وهو موت الرجل الذي أحبته والذي لم تتعرف عليه ، بل كان الوجهة التي أخطأت بها في حبها « أفتح الجريدة على صورته . فتؤلمني الكلمتان على بساطتهما « ADIEU ABDELHAK » ، أيكفي أن تضيف كلمة « وداعا » إلى أي اسم . . ليثير فيك كل هذا الألم ؟ « [15] . و« عبد الحق» اسمه دال على شخصيته أي على معنى الحق والحقيقة التي يترجمها من خلال قلمه باعتباره صحافي « أذهلني غيابه لحظة الكتابة وأذهلني أكثر أنه يكتب كلاما في صيغته النهائية دون تفكير أو تردد أو شطب» [16]، فهو يمثل شريحة الصحافيين الذين قادتهم طموحاتهم التقدمية إلى حتفهم .

ولم تكن « حياة» تعي أن ما عاشته من مغامرات كان مع صديقه « عبد

الحق» ، وأن الشقة التي شهدت مغامراتها كان شقته ، والعطر الذي كان يضعه « خالد» كان عطره ، وبالتالي فإن قصة الحب هذه مختلفة عن قصص الحب العادية التي يكون طرفاها شخصان يعيشان نوعا من السعادة

والإخلاص ، بل في هذه العلاقة هناك شخص ثالث يعيش بمحاذاة قصة قبل أن يصبح هو بطلها «أجمل حب هو الذي يأتيك أثناء بحثك عن شيء آخر » [17]، وكأن الكاتبة ترى في قصص الحب الثنائية نوعا من السذاجة .

ومن عالم الذات إلى عالم الجماعة حيث الشعب الجزائري بأكمله يعاني اليتم ويفتقر إلى وصي عليه يجمع شمل أبنائه ، فبعد موت « بومدين» أصبحنا نعاني عجزا اقتصاديا ووطنيا وعاطفيا رهيبا ، وتأكد ذلك أكثر بموت « محمد بوضياف» الذي كان بطلا من أبطال حرب التحرير الجزائرية ، جاهد وأحب الجزائر بإخلاص وضحى بكل شيء من أجلها ، فوجد نفسه نزيل سجون فرنسا قبل الاستقلال ، ثم منفيا ومطرودا إلى بلد مجاور اسمه « المغرب» الذي أقام فيه نحو ثلاثين عاما ، وبعد كل هذه السنوات جاء به العسكريون ليتسلم السلطة الفاسدة في الجزائر ، ويحد من ناهبي وسالبي لها حريتها وشرفها ، ويصحح كل خطئ ارتكبه الأولون ، فشكل مجلسا استشاريا وطنيا يضم عددا كبيرا من شرائح المجتمع الجزائري والمعروفون بنزاهتم ، لتقرير مصير هذا الوطن (كان « خالد» أحد أعضاء هذا المجلس) ، ولكنه اكتشف على عجل أنه جاء ليكون واجهة تغطي على تلك الدسائس والاجرامات ، فأنكر ذلك وعارضه ، ولكن يد الغدر اغتالته من الخلف ، ودفع حياته ثمنا لكل تلك المؤامرات « . . . جاء به الوطن ، كي يحكمه 166 يوما . وها هو يكافئه ذات حزيران . . بكفن ! وابل من الرصاص ، مقابل خمسة أشهر من الحكم» [18].

وقد أصدرت الكاتبة روايتها هذه إهداء إلى روح الشهيد « إلى بوضياف . . . رئيسا وشهيدا . وإلى سليمان عميرات ، الذي مات بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روحه . فأهدوا إليه قبرا جواره . وإلى ذلك الذي لم يقاوم شهوة الانضمام إليهما ، فذهب ذات أول نوفمبر ، بتلك الدقة المذهلة في اختيار موته ، لينام على مقبرة من خيبتهما . من وقتها . . ورجال أول نوفمبر قهرا يرحلون . من وقتها وأنا إلى أحدهم أواصل الكتابة . إلى أبي . . . مرة أخرى» [19]. ونتيجة لكل هذه الصراعات انهار الحلم ودخلت الجزائر في متاهة وطنية كبيرة لم تعرفها قبلا . فأحداث هذه الرواية كلها تشكل حلقات متعددة من سلسلة واحدة

تدور جميعها حول حدث رئيسي وهو موضوع الوطن المنتهك .

إن ظاهرة الأصوليون أو المتطرفون في كتابات «أحلام مستغانمي» ليست بظاهرة عابرة ، أو لمجرد مواكبة الأحداث ، وفرض حالة من الحضور كان من الصعب على الكاتبة تجاوزها ، بل هذه الظاهرة أو هذه الفترة (فترة العشرية السوداء) محطة سوداء في تاريخنا ، وحاضرة في أذهاننا ومجتمعنا ، ونحن هنا لسنا أمام كاتبة ترد عليها الأحداث مسموعة أو مكتوبة ، وتقحمها بقوة في جسد النص الروائي ، بل إن مستغانمي تنقلنا من الأخبار إلى الأفعال ، وتتحول بنا إلى شوارع العاصمة وقسنطينة ، وتدخل مقاهيها ومغفرها وسينمتها ، كما تشدنا ببراعة الوصف وحسن التصوير إلى أن نتعايش مع هذه الأحداث ، ونقدر ما عاشته بلادنا من أحزان وآلام في تلك الفترة .

الهوامش :

1 ـ عادل فريحات ، مرايا الرواية ، دراسة تطبيقية في الفن الروائي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2003 . ص 9 .

2 ـ مخلوف عامر ، الرواية والتحولات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000 . ص14 .

3 ـ أحلام مستغانمي ، ذاكرة الجسد ، ط8 ، دار الآداب ، بيروت 1998 . غلاف الرواية .

4 ـ ينظر عبد الله محمد الغذامي ، المرآة واللغة ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1996 . ص 192 ـ 193 .

5 ـ أحلام مستغانمي ، فوضى الحواس ، ط11 ، دار الآداب ، بيروت 2001 ، ص 27 .

6 ـ عادل فريحات ، المرجع السابق . ص 11 .

7 ـ أحلام مستغانمي ، المرجع السابق ، ص 346 ـ 347 .

8 ـ المرجع نفسه ، ص 340 .

9 ـ نفسه ، ص 128 .

10 ـ نفسه ، ص 133 .

11 ـ نفسه ، ص 38 .

12 ـ نفسه ، ص 318 .

13 ـ عادل فريحات ، المرجع السابق ، ص 11 .

14 ـ أحلام مستغانمي ، المرجع السابق ، ص 119 .

15 ـ المرجع نفسه ، ص 346 .

16 ـ نفسه ، ص 65 .

17 ـ نفسه ، ص 307 .

18 ـ نفسه ، ص 337 .

19 ـ نفسه ، إهداء الكتاب .